الحلقة (١٦)

←مسألة الكلام

يقول الطحاوي رحمه الله "**وإن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}،فلما أوعد الله بسقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر**"

هذا الكلام من الطحاوي رحمه الله اشتمل على أمور:

أولا: يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والأثر في مسألة القرآن وكلام الله عز وجل، وأن القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأن القرآن ليس بمخلوق، وأن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر، وأن من زعم أن القرآن كلام البشر فهو كافر للتواتر في ذلك، يقول الله {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}ومسألة كون القرآن كلام الله عز وجل منزل غير مخلوق من أكبر المسائل التي اختلف فيها المنتسبون إلى القبلة، ولكثرة الكلام فيها، يقال سمي أهل الكلام بأهل الكلام لأجل الكلام في هذه المسألة، وفي القرن الثاني الهجري كثر الكلام فيها إثباتاً ونفيا، يعني إثبات أن القرآن كلام الله وأن الله يتكلم حقيقة وما أشبه ذلك، والكلام أيضاً في نفي صفة الكلام عن الله تعالى حتى صارت عنواناً على الانحراف في التوحيد بما يسمى علم الكلام.

مذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه النصوص من القرآن والسنة ودل عليه إجماع سلف هذه الأمة، هو ما ذكره الطحاوي في كلامه قبل قليل: "**أن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا، وأنزله على رسوله وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا**" وهذه الجمل اشتملت على مسائل وموضوعات، لابد أن تستقر في الذهن ولا ينبغي أن يساوم عليها، لأنها ثابتة بالقرآن والسنة، ويثبتها العقل، وهي:

الأول: أن القرآن كلام الله.

الثاني: أن القرآن ليس بمخلوق.

الثالث: من زعم أن القرآن الكريم كلام البشر فهو كافر.

قول المؤلف "**أن القرآن كلام الله منه بدأ**"

القرآن لغة: مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، كما يقول الشاعر في وصف عثمان رضي الله عنه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به***يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

يعني يقطع الليل تسبيحاً وقراءة للقرآن رضي الله عنه.

اصطلاحاً: القرآن: اسم لكل كتاب يتلى أنزله الله عز وجل على نبي من أنبياءه، وذلك يدل على أن

تخصيص القرآن بالاسم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو كتخصيص الدين الذي أنزل عليه بالإسلام، فالقرآن هو الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن الإسلام هو الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وإن اشترك في الإسلام دعوة جميع الأنبياء والمرسلين وكذلك القرآن، دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه: (**ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يقرأ القرآن يجهر به يتغنى به**) فدل على أن قراءة النبي بما أنزل عليه والتغني بذلك دل على أن هذه القراءة للقرآن كما نص عليه الحديث، وهذا موافق لقولهم لأن أصل كلمة قرآن مصدر لكلمة قرأ يقرأ قراءة وقرآنا، لكن هي لما فيه شرف ومنزلة، **كلام الله** هو صفة من صفاته سبحانه وتعالى، **والكلام أصله في اللغة** ما سُمع من الأقوال وتعدى قائلَه، وهو مأخوذ من اشتقاق المادة أصلاً الكاف واللام والميم، وهذا الأصل يدل على قوةٍ وشدةٍ في تصريفاتها وتفريعاتها في لغة العرب، كما ذكر ذلك ابن الجني في كتابه (خصائص اللغة)، يدل على أن حديث النفس لا يسمى في اللغة كلاماً، وعلى أن القول الذي يسمعه صاحبه دون غيره، يعني ما يُجريه في نفسه لا يسمى كلاماً في اللغة، أو يحرك به لسانه لا يسمى كلاماً حتى يَسمعه منه غيرُه، وهذا يدل عليه من حيث الاشتقاق الأكبر والأوسط أن هذه الأحرف الثلاثة هي كلم حيث ما فرقتها لا تدل على خفاء ولا لين ولا رخاوة، بل هي تدل على قوة وصلابة وشدة.

قوله : "**كلام الله**" الكلام صفة من صفات الباري جل وعلا، وإضافته إلى الله عز وجل هي إضافة صفة إلى متصف بها، والذي جاء في القرآن والسنة أن ما يضاف إلى الله عز وجل **نوعان:**

الأول: إضافة مخلوقات الله إلى الله عز وجل، أعيان قائمة بنفسها وهي كإضافة البيت إلى الله، تقول بيت الله، وكعبة الله، وإضافة الناقة إلى الله ناقة صالح عليه السلام يقول الله تعالى {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}، وإضافة العبد كما قال الله تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوه}، كل هذا إضافة مخلوق إلى خالقه، **وهذه الإضافة بتخصيصها بالله عز وجل تدل على شرف المضاف إلى الله عز وجل**، يعني على شرف البيت والناقة والعبد الذي هو محمد صلى الله عليه وسلم

الثاني: إضافة المعاني وليست بالأعيان، يعني نضيف إلى الله معانٍ، معانٍ لا تقوم بنفسها، مثل الرحمة فلا يوجد أمامنا شيء يسمى رحمة مستقل عن من يقوم به، ولا يوجد عندنا شيء يسمى كلام مستقل عن متكلم أو سامع، **فهذه المعاني والصفات إذا أضيفت إلى الله عز وجل فهي إضافة صفة إلى متصف بها، وهذا أخذٌ بقواعد اللغة العربية.**

وقول المؤلف :"**منه بدأ بلا كيفية قولا**" -وسنأتي إلى كلام الشارح الذي هو المقرر وإنما هذا للتبيين والتوضيح وإن كان سيرد عليكم فيه أسئلة- فقوله "**منه بدأ بلا كيفية قولا**" فهذه الكلمة أوردها لاستعمال طائفة من أئمة الحديث والأثر لهذه الكلمة، وأنهم قالوا القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فاستعملها كما استعملها الأئمة من قبله، وقوله "**منه بدأ**" بدأ من الله سبحانه وتعالى و"**مِن**" هنا ابتدائية، و"**مِن**" لها استعمالات كثيرة في اللغة، منها أن تكون للابتداء وقد جمع

الناظم في حروف المعاني، جمع معاني "**مِن**" في اللغة العربية في اثنتي عشرة معنى، وهي تزيد على ذلك، فأول معاني "مِن" التبيين ثم التبعيض والتعليل والبَدء.

ومعنى "مِن" الابتدائية أن يكون الفعل بدأ من المُسنَد إليه، وقوله هنا "**مِنه بَدأ**" يعني أنه ابتدأ من الله عز وجل، يعني من الله ابتدأ، فيعني بـ "مِن" أن ابتداءه كان من الله عز وجل، وهذا دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: {**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَق**} وقوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد} وغير ذلك من الآيات.

قوله: "**منه بدا**" بالتخفيف من غير همز، يعني كان إبتداء ظهوره وخروجه من الله عز وجل، ويقال فيه أيضاً "**منه بدأ**" بالهمز يعني بدأ، يعني الابتداء منه إبتدأ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي بدأه، ولم يُبتدأ تنزيله من غير الله عز وجل بل نزل من الله ابتداء.

وقول الطحاوي "**بلا كيفية قولا**": تقدير الكلام أو سياق سبر الكلام المراد منه: منه بدأ قولاً بلا كيفية، يعني منه بدأ فلم يبتدئ منه معنى ولكن بدأ منه قولا، ظهر وخرج القرآن منه قولا، فهو كلامه وقد ظهر وخرج أو ابتدأ منه قولا، ففي قوله (قولا) إخراج لمن ادعى أنه معنى من المعاني جُعل في نفس جبريل عليه السلام.

قوله "**بلا كيفية**" يعني بلا كيفية معقولة لنا، وإلا فإن كلام الله سبحانه وتعالى لا شك أن له كيف ولكن الكيف غير معقول، فيصْدُق على هذا قول الإمام مالك بن أنس رحمه الله في مسألة الاستواء عندما سُئل عنه فقال: (إن الاستواء معلوم، أو غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب...) الخ

قال الطحاوي "**وأنزله على رسوله وحيا**" أنزله يعني الإنزال من الله عز وجل، والإنزال في القرآن والسنة جاء على نوعين:

الأول: الإنزال المطلق وهذا يكون من الله عز وجل، وقد يكون يُذكر أنه من الله، وقد لا يذكر فيه أنه من الله.

الثاني: الإنزال المقيد، يعني أنه يُقيّد ابتداء الإنزال من شيء مخلوق (ونزلنا من السماء)، فصار هنا ابتداء الإنزال أو التنزيل من السماء ونحو ذلك من الآيات التي فيها التنزيل المقيد، إذ قوله (أنزله على رسوله) هذا لأجل أن الآيات فيها ذكر التنزيل، والتنزيل مطلق منه عز وجل كقوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَق}، وكقوله {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}، وفي آية الشعراء هذه قوله {عَلَى قَلْبِكَ}: لأن القلب به تتميز المدركات المسموعة أو المدركات المرئية أو المدركات المعقولة، فذكر القلب في آية الشعراء لأجل تمييز المدركات بأنواعها، تمييز المسموعة عن المسموع، وتمييز المرئي عن المرئي، وتمييز المعقول عن المعقول وهكذا، وكذلك قوله {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد} وكذلك قوله {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ

رَحِيم}،والآيات في هذا الباب كثيرة متنوعة.

قول الطحاوي "**وأنزله على رسوله وحيا**" الوحي هنا المقصود به أن الإنزال كان وحيا، أُوحيَ على محمد،

والوحي في اللغة: إلقاء الخبر أو العلم في خفاء وسرعة، ولهذا سميت الكتابة وحيا وسميت الإشارة وحيا وهكذا، وهذا بحث معروف في اللغة.

الوحي من جهة الاصطلاح: اختلفت التعاريف فيه بحسب اصطلاح مذهب المعرّف، **ولهذا تجد في كثير من كتب التفسير تعريف للوحي لا ينطبق على مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الكلام،** وربما نقله من لا يحسن، فليُنتبه إلى ذلك عند الرجوع إلى كتب التفسير، فإن كلام المفسرين في الغالب عن هذه المسألة العظيمة الجليلة المهمة يخالف مذهب أهل السنة والجماعة، **وكذلك شرّاح الحديث غالباً ما يقعون في الزلل والضلال في هذه المسألة،** فليُتنبه عند قراءة هذه الكتب أوالرجوع إليها أو النقل منها لمخالفة مذهب أهل السنة والجماعة.

قول الطحاوي "**وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً**" يعني آمن به المؤمنون، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، قوله هنا "**وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة**" **استعمل لفظ الحقيقة ردا على قول من قال إنه كلام الله تعالى مجازاً كما هو** قول المعتزلة **وغيرهم، هذا من جهة استعمال لفظ الحقيقة** فيما استعملت فيه عند أهل الحديث عند أهل هذه المسائل.

وقوله "**ليس بمخلوق ككلام البرية**" يعني أن الله سبحانه وتعالى تكلم بهذا الكلام وهو صفة، صفته ليس بمخلوق، بل هو وحي منزل، فكلام الله صفته، وأما المخلوق فهو كلام البرية، فكلام الناس هو المخلوق، وأما كلام الله صفة من صفاته سبحانه وتعالى.

إذا تبينت لك هذه التعاريف فسنقف عند هذا ونرجع إلى **تقرير ما اشتملت عليه هذه الجمل:**

أن القرآن كلام الله منه بدأ، وأنه وحي، وأنه كلامه حقيقة، وأنه ليس بمخلوق، وهذه المسائل سنقرؤها في كلام الشارح رحمه الله تعالى، ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية، قبل القراءة نتكلم عن المسألة الأولى:

←**المسألة الأولى**: مسألة نشأة القول بخلق القرآن، أو أن كلام الله مجاز وما أشبه ذلك، والخلاف في هذه المسألة، ومنشأ القول في هذه المسألة، ولم خالف المخالفون فيها، ولم خالفوا الحق والصواب ومالوا إلى البدعة وجانبوا السنة التي كان عليها الصحابة ومن تبعهم؟

فأول من تكلم بهذه المسألة هو الجعد بن درهم، وضُحي به، فقد ضحى به **خالد بن عبد الله القَسري** وكان يقول (إن جعداً يزعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، فإني مُضحي بالجعد بن درهم فضحوا به تقبل الله ضحاياكم)، فنزل وذبحه فبورك هذا القربان، روى ذلك البخاري في كتابه خلق أفعال العباد، هذه المسألة وهذه المقولة الخبيثة الضالة من الجعد **تطورت عند الجهمية وعند جهم بن صفوان خصوصاً،** فأصّلَ لها أصلاً وأنه نظر في أصل الدين فوجد أنه مبني على

إثبات وجود الله، فالجهم نظر أن أصل الدين مبني على إثبات وجود الله عز وجل، وقد ابتلي الجهم بطائفة من منكري وجود الإله، وحيروه فيما يوردون عليه من إشكالات فقالوا للجهم، وهم لا يقرّون لا بكتاب ولا بسنة، فقالوا له: أقم لنا برهاناً عقليا على أن هذا الخلق لله عز وجل، وأنه خالق له، وأن الله موجود، فتحير ونظر في هذه المسألة، ثم قال لهم وجدتها، -أي وجد لهم الحل فانظروا ماذا وجد لهم الجهم بن صفوان- **أقام البرهان بما يسمى عند أهله بحلول الأعراض في الأجسام، وهو أصل الانحراف في مذهب الجهمية، ثم المعتزلة، ثم الأشاعرة، ثم الماتريدية**، ولهذا السلف ينسبون كل من انحرف في الصفات إلى جهمٍ فيقولون هو جهمي، لأنه ما انحرف إلا بموافقته لجهم في هذا الأصل الذي أصّله وانحرف به عن منهج السلف، وهذا البرهان الذي وجده جهم هو ليس ببرهان، بل هو دليل باطل، قال في تقريره: "**إن الجسم تحل فيه الأعراض**"

والجسم: هو كل متحيز كالطاولة والكرسي والمبنى...إلخ، **والأعراض**: مثل البرودة والحرارة والارتفاع والانخفاض ومثل الطول والعرض والعمق ومثل الحركة فيه والتحرك... إلخ، وهذه الأشياء معلوم أنها لا توجد بنفسها، وإنما أوجدت بالجسم والجسم حلت فيه هذه الأعراض دون اختياره، فبهذا صار هذا الجسم جسماً محتاجاً إلى العَرَض، لأن العرَضَ وحده لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالأجسام، وحلول الأعراض في الأجسام دل على أنها مخلوقة وعلى أنها محتاجة لهذه الأشياء التي تميزها عن غيره وتَصلُح معها للوجود، فلهذا صار الجسم قابلاً لحلول الأعراض فيه، وصار الجسم محتاجاً لغيره فصار إذن مخلوقاً موجَدَا، إذا تبين هذا قالوا له هذا تبيين صحيح في أن الجسم لم يوجِد نفسه –يعني الجسم المعين والمعين المعينة- فلم يوجِد نفسه وأنه موجود واقتنعوا بهذا البرهان مع أنه في حقيقته غير مقنع وغير مستقيم، فأثبت لهم وجود خالق، وجود ربٍ لهذه الأشياء، فلما نظروا في هذا قالوا له هذا دليل صحيح فصف لنا ربك؟! وكان جهم فقيهاً عنده علم بالكتاب والسنة، ولما سألوه هذا السؤال نظر في الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، فتحير في أنه لو أثبت هذه الصفات لعادت على هذا الدليل الذي قرره قبل قليل الذي لم يجد غيره دليلاً عقلياً في إثبات وجود الله، لعادت عليه بالإبطال، لأنه وجد في الكتاب والسنة أن من الصفات الاستواء وأن من الصفات الرحمة والإعطاء والغضب والرضى وكل هذه معانٍ لا تقوم بنفسها وهي تأتي وتذهب، يعني من حيث هي، فلهذا قال: إنه لو قال لهم إن صفات الرحمن عز وجل هي التي جاءت في الكتاب والسنة على ظاهرها، فإنه يعود إلى أن سيقال له -أي لجهم- إذن فالذي يتصف بهذه الصفات هو محتاج إذن هو مثل الجسم فهو جسم كالأجسام، **فلهذا قال لهم: "إن الله سبحانه لا صفة له إلا صفة الوجود المطلق"**، وعلى هذا الأصل نشأ جهم في نفي الكلام، ونفي جميع الصفات، حتى أسماء الله عز وجل يفسرها بالآثار المخلوقة، وجاء بعده المعتزلة وقالوا هذا البرهان صحيح ولكن ثَم صفاتٌ دلّ عليها العقل ولا يمكن أن يكون الرب موجودا دون هذه الصفات، ثم جاء الأشاعرة ثم الماتريدية، ولذلك هذه المسألة من أعظم المسائل.